المحور الثاني: الأبعاد الإنسانية للتصوف

عنوان المداخلة:

ميزان حقيقة الإنسان في تصوف محيي الدين بن العربي

د. زهير بن كتفي

كلية العلوم الإسلامية – جامعة الوادي

Zohbenketfi66@gmail.com

Benketfi-zouhir@univ-eloued.dz

مقدمة

إنّ بحث موضوع الإنسان في كليته أو من جوانبه المتعددة هو من المواضيع التي تناولتها الكثير من الرؤى والاتجاهات بالبحث والدراسة في العديد من المجالات البحثية الإنسانية والاجتماعية والدينية المختلفة كعلم النفس وعلم الاجتماع والأنتربولوجيا والدراسات الدينية والصوفية والعرفانية وغيرها من المجالات الأخرى. ويأتي الحديث عن الإنسان في مجال تصوف الشيخ محيي الدين ابن العربي ليعبّر عن أبعاد متعددة منها ميزان حقيقة الإنسان وصفته؛ وذلك من منطلق أن هذا الميزان الذي يحدد حقيقة الإنسان في سياق التجربة الصوفية له يسعى فيما يسعى للتتوّيج بالتعرف على خلاصة حقيقة أن يعرف الإنسان نفسه، وهنا يأتي السرّ لكي يعطي كل المعنى المقصود لمسيرة الإنسان في مناحيها الوجودية والمعرفية والأخلاقية.

وقد تطرق الصوفية بصفة عامة والشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي (560-638هـ) بصفة خاصة إلى موضوع الإنسان و"الإنسان الكامل" على وجه الخصوص، إذ يمكن القول أنّ تحقيق إنسانية الإنسان الكامل الرباني خليفة الرحمان هو من المآلات الكبرى لكتابات ابن العربي؛ من حيث أن هذا التناول يستمد أهميته وقيمته من أهمية وقيمة الإنسان ذاته في الكون.

ومن هنا كان اختيارنا للعنوان مركزا في أساسه على محاولة استشكال مسألة ما هو ميزان حقيقة الإنسان في الرؤية الأكبرية. وهذا من أجل تحقيق جملة من الأهداف من أهمها وضع موضوع الإنسان في إطاره الصحيح، الذي هو المرجعية القرآنية والسنة النبوية وتراث كبار العارفين بالله، بعيدا عن جميع التأويلات المقحمة والمتعسفة في فهم هذه القضية. بالإضافة إلى الكشف عن المعاني الوجودية والمعرفية والأخلاقية له خاصة في هذا الراهن الذي نعيشه اليوم وتعيشه الإنسانية جمعاء؛ إذ يبدو الحديث عن الميزان في حقيقة الإنسان أكثر من ضرروي في سبيل إعادة تحديد حقيقة وماهية الإنسان وإنارة السبيل حول طريقه وانتشاله من أشكال الضياع والاغتراب الوجودي والتردي الذي آل إليه وضعه في الواقع المعاصر.

وبناء عليه فقد اقتضت هذه الورقة البحثية أن تمرّ عبر عناصر رئيسية تتمثل في الآتي:

أولا: مفهوم الإنسان.

ثانيا: صفة الإنسان وحقيقته.

ثالثا: سبب خلافة آدم عليه الصلاة والسلام وخلفائه في الأرض.

رابعا: أسرار الثمانيات في الإنسان.

خامسا: الإنسان الموحد الذاكر هو العمد الواصل بين السماء والأرض.

خاتمة.

أولا: مفهوم الإنسان:

1-في اللغة: تذهب المصادر اللغوية إلى أن مفهوم الإنسان عموما له العديد من الاشتقاقات لعلّ من أبرزها أنه مشتق من "الأنس". وفي اللغة تأتي "آنسه" بمعنى أبصره قال تعالى:﴿**إِنِّي آنَسْتُ نَارًا**﴾[طه:10]، أي أبصرت نارا، وفي قوله تعالى:﴿**آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا**﴾[القصص:29]؛ ؛ أي أبصر فالاستئناس في كلام العرب بمعنى النظر. وآنس الشيء أحسه وعلمه، ومنه قوله تعالى:﴿ **فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ**﴾[النساء:6]. ويقال استأنس فلان نظر أو أبصر[1]. وقيل للإنس: إنس لأنهم يؤنسون، أي يبصرون، كما قيل للجن: جن لأنهم لا يؤنسون، أي لا يرون[2]. فتحصّل من هذا أن كلمة إنسان في كلام العرب، يرجع إلى معنى الظهور، عكس الجن.

فلفظ الإنسان بناء على ذلك يرجع معناه في كلام العرب في بعض اشتقاقاته اللغوية إلى الظهور. ولا يعدم أيضا في كلامهم أن يأخذ بعدا قيميا عندما يجعلونه بمعنى الطمأنينة التي هي ضد الوحشة[3]. وهذا ما نجده عند ابن سيده الأندلسي(ت:458هـ) عنما يؤكد، في تعريفه للإنسان، على العلاقة بين المعنى اللغوي والمعنى القيمي، حيث يقول: "إنسان عندي مشتق من أنس، وذلك أن أنس الأرض وجمالها وبهائها إنما بهذا النوع الشريف اللطيف المعتمر لها والمعني بها"[4].

والشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي (560هـ-638هـ) في تناوله لمفهوم الإنسان من الناحية اللغوية لا يخرج عموما عن المعنى الوارد في المعاجم اللغوية، وإن كان يحمله الكثير من المضامين العرفانية الخاصة بمعجمعه اللغوي، فنراه يؤكد على أن سبب تسمية الإنسان بهذا الاسم لأنه أنس الرتبة الكمالية يقول: "وسماه إنسانا؛ لأنه

---

[1]- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ط2، المطبعة الحسينية المصرية 1344هـ، ج2، ص198.

[2]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3]- المرجع نفسه. أنظر: محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، ط1، القاهرة، مكتبة الآداب 2010، ج4، ص2188.

[4]- ابن سيده، المخصص، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ج1، ص17. أنظر: عبد الوهاب فرحات، نظرية الإنسان عند محيي الدين بن عربي، أطروحة دكتوراه، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، قسم العقيدة ومقارنة الأديان، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2003-2004، ص 192.

أنس الرتبة الكمالية فوقع بما رآه الأنس له، فسماه إنسانا مثل عمران، فالألف والنون زائدتان في اللسان العربي (...) فبالصورة نال الخلافة والتصريف، واسم الإنسانية من إنسانيته ثبت أنه غيرٌ يؤنس به"[1].

فهنا لا يكتفي ابن العربي بأن يربط بين لفظة "الأنس" والإنسان في الإطار اللغوي بل يعطي مفهوما أعمق من حيث بيان أن الإنسان لا يكون إنسانا إلا إذا تحقق بمرتبة الإنسانية التي تعني عنده جمع الإنسان لحقائق الحق والعالم. وفي هذا يقول: "الإنسان الحيوان خليفة الإنسان الكامل، وهو الصورة الظاهرة التي بها جمع حقائق العالم، والإنسان الكامل هو الذي أضاف إلى جمعية حقائق العالم حقائق الحق التي صحت له بها الخلافة"[2].

ويظهر أن ابن العربي يتفق من الناحية المبدئية مع المعاجم اللغوية من جهة إطلاق لفظ الإنسان على كافة أفراد الجنس البشري سواء تحققوا بالمرتبة الإنسانية أو لم يتحققوا، من منطلق تعميم التشابه الحسي الطبيعي بين أفراد النوع البشري فقط. فالإنسان لغة، واحد الإنسانية، فقد يقال الواحد على النوع، كقولنا: زيد وعمرو واحد بالإنسانية، والإنسانية هي المصدر الصناعي المشتق الإنسان، وهي، أي: الإنسانية عند ابن العربي، مرتبة واحدة لا غير تتحقق في الإنسان الكامل الذي يسميه ابن العربي إنسانا، وما عداه يطلق عليه اسم إنسان متشابه مع الإنسان الكامل في شكل أو صفة[3]. يقول: "وإنما قلنا الإنسان الكامل؛ لأن اسم الإنسان قد يطلق على المشبه به في الصورة، كما نقول في زيد إنه إنسان، وإن كان زيد ظهرت فيه الحقائق الإلهية وما ظهرت في عمرو، فعمرو على الحقيقة حيوان في شكل إنسان"[4]، فـ"الناس يشبهون الإنسان في الصورة الحسية وهم نازلون عن رتبة الكمال"[5].

ومن خلال ما سبق بيانه وانطلاقا من نصوص ابن العربي نفسه، يبدو أن منظور ابن العربي للإنسان يقوم على بعدين: فالإنسان من حيث طبيعته الجسمية العنصرية هو على صورة الكون وهو جامع لحقائقه، فمن هذه الناحية هو إنسان حيوان. ومن حيث حقيقته وباطنه هو على الصورة الإلهية وجامع لحقائق الأسماء الإلهية التي توجهت إلى إيجاد العالم، فهو الإنسان الكامل وخليفة الله[6]. وبهذا الاعتبار سيظهر لنا مفهوم الإنسان في المعنى الاصطلاحي أكثر وضوحا.

2-الإنسان في اصطلاح الشيخ محيي الدين بن العربي:

وعلى الرغم من تمييز الكثير من المفكرين والعلماء والفلاسفة للإنسان بأنه حيوان عاقل أو مفكر إلا أنهم لم يستطيعوا في الواقع أن يجدوا له تعريفا جامعا مانعا دّالاً؛ فاحتواء الإنسان على جانبين في وجوده أو قل على أجزاء علوية وأخرى سفلية جعل من العسير أن يكون له نظير في الوجود، وهذا أفضى إلى أنه لا حد له. ونحن لا نريد في هذه الورقة الموجزة التطرق إلى التعريفات والمفاهيم المختلفة في عديد المجالات المعرفية والعلمية التي تناولت مفهوم

---

[1]- ابن عربي، الفتوحات المكية، ج2، ص643.

[2]- المصدر نفسه، ج3، ص437.

[3]- سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، ط1، بيروت، دار دندرة للطباعة والنشر 1981، ص152.

[4]- ابن عربي، الفتوحات المكية، ج2، ص396.

[5]- المصدر نفسه، ج3، ص151.

[6]- عبد الوهاب فرحات، نظرية الإنسان عند محيي الدين بن عربي، ص193.

الإنسان وحاولت تعريفه، إنما نريد التركيز على مفهوم الإنسان خاصة عند ابن العربي باعتباره مفهوما شاملا لا يؤكد فقط على حقيقة إنسانية الإنسان بل أيضا على حقيقة إنسانية الإنسان الرباني خليفة الرحمن. فما هي أهم المعالم الأساسية التي تبرز فيها حقيقة هذا الإنسان عند ابن العربي؟

قبل التطرق إلى هذه المعالم أو المحددات إن صح التعبير، سنزيد المفهوم السابق للإنسان في دلالته اللغوية عند ابن العربي أكثر تعميقا في المجال الاصطلاحي عنده.

فإذا كانت الإنسانية في بعض معانيها التي تعطيها لنا اللغة تقال على ما هو محمود وحسن من الصفات، وإذا كانت الإنسانية تفهم في بعض الأحيان في المجال الفلسفي التقليدي خاصة على أنها مقول كلي مجرد يدل على جملة من الخصائص المشتركة بين جميع الناس؛ فإن ابن العربي يتجاوز هذه المعاني ليرى أن الإنسانية رتبة كمال معرفية وليست تحديدا مرتبة وجودية. فإن "الإنسان الحيوان" و"الإنسان الكامل" وإن كانا متشابهين من حيث تماميتهما الوجودية لجمعهما الحقائق كافة من إلهية وكونية، لكنهما مختلفان من حيث الكمال الذي يدرك بالتحقق المعرفي المنتج للفعل. يقول ابن العربي: "فهذا المنزل يعطيك شرف الإنسان على جميع من في السماء والأرض، وإنه العين المقصودة للحق من الموجودات؛ لأنه ما كمل إلا بصورة الحق، كما أن المرآة وإن كانت تامة الخلق، فلا تكمل إلا بتجلي صورة الناظر، فخلق سبحانه الإنسان من حيث تماميته، لا من حيث كماليته، فهذا النوع المشارك له في الاسم إذا لم يكمل هو من جملة المسخرين"[1].

وبذلك كان معنى "الإنسانية" عند ابن العربي يعني الخلافة عن الله تعالى، وهنا تظهر قيمة النظر إلى مصطلح الإنسانية كـ: "صفة فعل" أو وعي معرفي وتحقق فعلي عملي سلوكي، لأنها ستكون حينئذٍ "أنس بالرتبة الكمالية"، أو ارتقاء إلى الدرجة التي توصل الإنسان للخلافة في الأرض. فالتحقق المعرفي والعملي بصورة الحق هو الذي يميّز بين الإنسان الحيوان والإنسان الكامل، وذلك لأن كليهما يتشابهان من حيث تماميتهما الوجودية ولكنهما يختلفان من حيث كماليتهما المعرفية العملية. إذ أن الإنسان الحيوان والإنسان الكامل كلاهما جامع للحقائق كافة من إلهية وكونية، ولكن يختلفان من حيث الإدراك والتحقق كما أسلفنا[2].

والإنسانية عند ابن العربي تكتسب "سمات البرزخ"، لأن البرزخ عنده بمثابة مرآة للطرفين، فمن أبصره أبصر الطرفين. فالإنسانية بهذا الاعتبار أشبه بـ"البرزخ" الذي هو حقيقة الإنسان التي جمعت بذاتها الصورتين "الحقية" و"الخَلقية"، فكانت نسختين ذات نسبتين: نسبة تدخل بها الحضرة الإلهية، ونسبة تدخل بها الحضرة الكونية فهي برزخ بين العالم والحق، وهي مرتبة الإنسان الكامل[3].

ويمكن الإشارة في هذا الإطار إلى أن ابن العربي يؤكد على أن هذه المرتبة ليست حكرا على الرجال دون النساء، وفي هذا المعنى يقول: "إن المنازلات بين حقائق الأسماء الإلهية وبين الحقائق الإنسانية في الإنسان الكامل

---

[1]- ابن عربي، الفتوحات المكية، ج3، ص151.

[2]- عبد الوهاب فرحات، نظرية الإنسان عند محيي الدين بن عربي، ص195.

[3]- سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، ص194.

امرأة كان أو رجلا تتعدد بتعدد التوجهات والأسماء، وما عدا هذا الصنف الإنساني فليس له هذا التعميم لعدم كمال الصورة فيه"[1]. ويقول أيضا: "القرب من الحق بحسب تقديس الذات وتزكيتها، ولا يختص بذلك ذكر دون أنثى، بل هو فضل الله يؤتيه من يشاء، وقد كمل من النساء مريم وآسيا"[2]. ويقول في موضع آخر: "اعلم أيدك الله، أن الإنسانية لما كانت حقيقة جامعة للرجل والمرأة لم يكن للرجال على النساء درجة من حيث الإنسانية"[3]. وبهذا يكون الشيخ الأكبر قد فتح سبيل الكمال والولاية وبلوغ مرتبة الإنسانية لكلا الصنفين، ولم يشترط الذكورة أو الأنوثة لأي كمال.

وهكذا فإن خلاصة تعريف الإنسان عند ابن العربي في المفهوم الاصطلاحي هو أنه "مخلوق على الصورة"، لكن لا بالصورة المادية، ولكن الروحية.

ويبدو لي أن هذا المفهوم هو الذي سيأسس للكثير من المحددات المركزية التي تكون ميزانا في بيان حقيقة الإنسان عند ابن العربي وهو ما سيظهر لنا فيما يأتي.

ثانيا: صفة الإنسان وحقيقته

1-صفة الإنسان:

إن صفة الإنسان عند ابن العربي هي صفة الحضرة الإلهية أو مجموع الأسماء الإلهية، وهو ما أشرنا إليه سابقا في مفهوم الإنسان عندما قلنا أنّه مخلوق على الصورة. أو إن شئت قلت، كما يذهب إلى ذلك ابن العربي، هو قول النبي صلى الله عليه وسلم: **"إن الله خلق آدم على صورته"**[4]. فهذه صفته كما يذهب إلى ذلك ابن العربي.

ويرى ابن العربي أنه لما علمنا أن الخلق باليدين كان اختصاص آدم عليه السلام؛ بخلقه مباشرة باليدين انطلاقا من قوله تعالى لإبليس:﴿**مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾[ص:75] عرفنا أن الحق تعالى أعطاه صفة الكمال لما جمع له في خلقه بين يديه، فخلقه جامعاً. ومن هنا قبوله للأسماء الإلهية، فكان مجموع العالم من حيث حقائقه، فهو عالم مستقل وما عداه جزء من العالم، وإبليس جزء من العالم لم تحصل له هذه الجمعية. ولهذا كان آدم خليفة [5].

فالمباشرة بالخلق باليدين دون واسطة فيه معنى التشريف الإلهي، وهذا ما عبر عنه الشيخ الأكبر بقوله: "ما عرف مقدار البشر إلا من عرف معنى ﴿**مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾[ص:75]"[6]. فالإنسان ما هو إلا عين

---

[1]- ابن عربي، كتاب التراجم، تحقيق موفق فوزي الجبر، ط1، دمشق، دار الحكمة 2000، ص37.

[2]- المصدر نفسه، ص84.

[3]- ابن عربي، الفتوحات المكية، ج3، ص87.

[4]- البخاري، الجامع الصحيح، بيروت، دار الفكر(د.ت)، كتاب الأنبياء، باب: خلق آدم على صورته، حديث 3326، ج2، 405. مسلم، الصحيح، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الرياض، الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والإرشاد 1400هـ، كتاب الجنة، باب: يدخل الجنة أقوام أفئدتهم كأفئدة الطير، ج8، ص149.

[5]- ابن العربي، الميزان في حقيقة الإنسان، تحقيق وتعليقات: عبد الباقي مفتاح، ط1، إربد-الأردن، عالم الكتاب الحديث للنشر 2022، ص23، 58. ابن عربي، الفتوحات المكية، جواب عن السؤال 40: ما صفته؟ من أسئلة الحكيم الترمذي، الباب 73.

[6]- ابن عربي، الفتوحات المكية، ج4، ص410.

جمعه بين الصورتين: صورة العالم، وصورة الحق وهما يدا الحق. فإطلاق البشر على الإنسان يرجع عند ابن العربي إلى أمرين: أولهما: لمباشرة الحق تعالى خلقهم، وثانيهما: لأن الخلق كان باليدين للدلالة على جمعية الإنسان لكل الكمالات، حيث يقول ابن العربي في هذا السياق: "ووضعك في أول نشأتك ميزانا نصبه فما كان أعدلك، جمع لك سبحانه في خلقك بين يديه تمييزا على سائر خلقه فسوّاك فعدّلك"[1]، مشيرا إلى قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6)الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7)فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (8)**﴾[الإنفطار:6-8].

أ-الإنسان والملائكة:

ويرى ابن العربي أن الإنسان سُمّي بـ"آدم" لأن حكم ظاهره عليه هو الغالب، ذلك أنه ما عُرف منه سوى ظاهره، وكذلك ما عُرف من الحق تعالى إلا الاسم "الظاهر"، وهو المرتبة الإلهية؛ لأن الذات الإلهية مجهولة. فكان آدم بذلك في عالم الملائكة مجهول الباطن[2]. ومن هنا يفرّق ابن العربي بين نسبة الإنسان إلى الحق ونسبة الملائكة إليه، فيقول: "أن نسبة الإنسان إلى الحق هي من جهة باطنه أكمل في هذه الدار الدنيا، وأما في النشأة الآخرة فإن نسبته إلى الحق من جهة "الظاهر" و"الباطن". وأما المَلَك، نسبته إلى الحق من جهة الظاهر أتم، ولا باطن له"[3]. ويؤكد هنا على أن هذه النسبة التي تحدث عنها إلى الحق هي من جهة النسبة إلى "الله" لا من حيث ذاته؛ فإنه من حيث ذاته هو لذاته، ومن حيث مسمى الله يطلب العالم. فكأن العالم لم يعلم من الحق سوى المرتبة وهي كونه إلهاً رباً. ولهذا لا كلام له فيه إلا من حيث هذه النسب والإضافات"[4]. والمقصود بـ"النسب والإضافات" عنده هي الأسماء الإلهية تحديدا أو الصفات الإلهية وإن كان لا يقر بكلمة الصفات، ويرى أنها وردت في القرآن الكريم في محل تنزيه الله عنها.

ولأجل أن نشأة الإنسان مركبة ونشأة الملائكة بسيطة، ولأجل جهل الملائكة بالجانب الباطن في الإنسان فقد حكموا عليه بالإفساد من ظاهر نشأته لما رأوها قامت من طبائع مختلفة متضادة متنافرة، فعلموا أنه لا بد أن يظهر أثر هذه الأصول على ما من هو على هذه النشأة. فلو علموا باطنه، وهو حقيقة ما خلقه الله عليه من الصورة، لرأوا الملائكة جزء من خلقه؛ فجهلوا أسماءه الإلهية التي نالها بهذه الجمعية لما كشف له عنه، فأبصر ذاته، فعلم مستنده في كل شيء ومن كل شيء[5].

ب-الإنسان والعالم:

كذلك الإنسان، وإن صغر جرمه عن جرم العالم، فإنه يجمع جميع حقائق العالم الكبير، ولهذا يسمي العقلاء العالم إنسانا كبيرا. ولم يبق في الإمكان معنى إلا قد ظهر في العالم، فقد ظهر في مختصره[6].

---

[1]- ابن العربي، الميزان في حقيقة الإنسان، ص29.

[2]- المصدر نفسه، ص23.

[3]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[4]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[5]- المصدر نفسه، ص24. ابن عربي، الفتوحات المكية، جواب السؤال 145 من أسئلة الحكيم الترمذي، الباب الثالث والسبعون.

[6]- المصدر نفسه، ص 68. ابن عربي، الفتوحات المكية، جواب السؤال 143 من أسئلة الحكيم الترمذي.

فبالإنسان الكامل ظهر كمال الصورة، فهو قلب لجسم العالم الذي هو عبارة عن كل ما سوى الله تعالى. وه والبيت المعمور بالحق لما وسعه. جاء في الحديث القدسي: "ما وسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن". وقد بيّن الشيخ الأكبر أن الإنسان الكامل هو روح العالم، فهو كالنفس الناطقة بالنسبة للجسم. فمن ذلك قوله في الباب 358 من الفتوحات: "فما وُجدت هذه الأسباب إلا بسببك، لتظهر أنت، فما كانت مطلوبة لأنفسها. فإن الله لما أحب أن يُعرف لم يمكن أن يعرفه إلا من هو على صورته، وما أوجد الله على صورته أحدا إلا الإنسان الكامل، لا الإنسان الحيوان. فإذا حصل حصلت المعرفة المطلوبة. فأوجد ما أوجد من الأسباب لظهور عين الإنسان الكامل؛ فاعلم ذلك"[1].

فالعالم كله تفصيل آدم. وآدم هو الكتاب الجامع؛ فهو للعالم كالروح من الجسد. فبالمجموع يكون العالم هو الإنسان الكبير، والإنسان فيه. وإذا نظرت في العالم وحده دون الإنسان، وجدته كالجسم المسوّى بغير روح. وكما العالم بالإنسان مثل كمال الجسد بالروح. والإنسان منفوخ في جسم العالم، فهو المقصود من العالم (...) فإن أخذت الشرف بكمال الصورة، قلت: الإنسان أكمل. وإن أخذت الشرف بالعلم بالله من جانب الحق، لا من طريق النظر، فالأفضل والأشرف من شرفه الله بقوله: "هذا أفضل عندي". فإنه لا تحجير عليه في أن يفضل من يشاء من عباده؛ فإنّ العلم بالله الذي يقع به الشرف لا حد له ينتهي إليه"[2].

2–حقيقة الإنسان:

يذهب ابن العربي إلى أن "رأس الأسماء الذي استوجب منه جميع الأسماء إنما هو الإنسان الكبير، وهو الكامل. وإن كان هذا، فهو الأولى في طريق القوم أن يُشرح به رأس الأسماء. فإن آدم علّمه الله جميع الأسماء كلها من ذاته ذوقا، فتجلى له تجليا كلياً، فما بقي اسم في الحضرة الإلهية إلا ظهر له فيه، فعلم من ذاته جميع أسماء خالقه"[3]. وفي شرحه لهذا النص يقول الشيخ عبد الباقي مفتاح: "يقصد الشيخ هنا أنّ الاسم هو الدال على المسمّى. وأعظم دالّ على المسمّى الإنسان المحمدي الكامل، و"من عرف نفسه عرف ربّه"[4]. ثم يشير إلى قول الشيخ الأكبر بصدد إشارته لآية سورة العلق ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**﴾ ولقيت الشيخ أبا أحمد بن سيدبون بمرسية، وسأله إنسان عن اسم الله الأعظم، فرماه بحصاة، يشير إليه " إنك اسم الله الأعظم"، وذلك أنّ الأسماء وضعت للدلالة، فقد يمكن فيها الاشتراك، وأنت أدلّ دليل على الله وأكبره"[5].

---

[1]– ابن العربي، الميزان في حقيقة الإنسان، ص 64.

[2]– المصدر نفسه، ص24.

[3]– المصدر نفسه، الصفحة نفسها. ابن عربي، الفتوحات المكية، جواب السؤال 132 من أسئلة الحكيم الترمذي.

[4]– قال الإمام النووي ليس بثابت. وقال ابن تيمية موضوع وقال أبو مظفر السمعاني في القواطع لا يعرف مرفوعا وإنما يحكى عن يحي بن معاذ الرازي يعني من قوله. وللسيوطي فيه تأليف لطيف سمّاه "القول الأشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه". أنظر: العجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، تحقيق: أحمد القلاش، ط4، بيروت، مؤسسة الرسالة 1985، ص 343. والجدير بالذكر هنا أن هذا الحديث صحيح عند ابن العربي بالكشف.

[5]– ابن العربي، الميزان في حقيقة الإنسان، ص25. ابن عربي، الفتوحات المكية، الباب اثنان وثمانون ومائتان المتعلق بسورة العلق.

فمعرفة الإنسان لحقيقة نفسه هي المفتاح لمعرفة الله تعالى وأكبر دليل عليه. يقول الشيخ الأكبر: "اعلم- أيدنا الله وإياك بروح منه- أن الجهل بالله إنما كان من جهلك بك، فإن الله ما جعل دليلا على العلم به إلا بك فجعل الآية في نفسك وقال النبي صلى الله عليه وسلم المترجم: "من عرف نفسه عرف ربه" "[1].

فالإنسان عند الشيخ الأكبر مخلوق على الصورة أو حقائق الأسماء الإلهية، والتحقق بالأسماء الإلهية هو وحده الذي يصح به أن يكون الإنسان إنسانا.

فالفارق بين الإنسان الحيوان والإنسان الكامل فارق في درجة التخلق والوعي بالصورة الإلهية، ولذلك كان ابن العربي يؤكد أن التصوف كله أخلاق، فمن لا أخلاق له لا تصوف له. وما هذه الصورة الإلهية التي يعي بها الإنسان الكامل نفسه إلا حقيقة الأسماء الحسنى. والوعي بالصورة الإلهية عند ابن العربي لا مجال فيه للمخالطة بين الذات الإلهية والذات الإنسانية، بل يكون بين حقائق الإنسان وحقائق الألوهة المتمثلة في الأسماء الحسنى. وفوق ذلك فإن الوعي والتحقق بالصورة الإلهية ليس عملا ميسورا، وإنما يحتاج إلى تهذيب خلقي وصفاء نفسي ومجاهدة روحية بالإضافة إلى النموذج الذي يتمثل في الإنسان الكامل. ولذلك كان من خصائص الأنبياء والرسل صلوات الله سلامه عليهم وورثتهم من العلماء الأولياء من أهل الله تعالى هو تزكية الأنفس وقيادة الأرواح في سيرها إلى الله تعالى، قال تعالى:﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[الجمعة:2][2]. فالمعرفة بالله تعالى وبالحقيقة تقتضي روحانية عالية قد لا يحوزها إلا بالإنسان الكامل، معرفة مرتبطة بالمحبة، والمحبة سرّ إلهي[3].

ثالثا: سبب خلافة آدم عليه الصلاة والسلام وخلفائه في الأرض

ومن المسائل التي ناقشها ابن العربي في هذا الإطار مسألة لِمَ كانت خلافة آدم عليه السلام وخلفائه في الأرض دون السماوات؟ يجيب بأن آدم عليه السلام "جُعِل خليفة في الأرض دون السماء ودون الجنة والنار، وذلك لأن الأرض محلّ الجمع ومنزل المزج والأخلاط، فهي الجامعة لأصناف الموجودات المختلِفات والمتضادات، من أهل المخالفة والموافقة، وعالم الرحمة والعضب، وعالم القهر وعالم العفو، وعالم الذلة وعالم العزة، وعالم الفقر وعالم الغنى، وعالم الحق وعالم الدّعاء، وعالم الخلق وعالم الأمر، وعالم الجن وعالم الشياطين، إلى غير ذلك من العوالم. فهي الدار الجامعة، والحضرة الشاملة لجميع ما أعطت جميع الأسماء"[4].

ثم إن الحاكم على جعل خلافته في الأرض دون السماوات أنه يمثل الحضرة الجامعة لجميع الأسماء الإلهية ولحقائق الأكوان كلها. وهذا الأمر لم يوجد إلا في الأرض "فإن السماوات العلى عالم تنزيه وتقديس لا عالم تدنيس

---

[1]- ابن عربي، الفتوحات المكية، ج4، ص173.

[2] - عبد الوهاب فرحات، نظرية الإنسان عند محيي الدين بن عربي، ص593.

[3] - محمد المنصف بن البشير، فلسفة اب عربي في المعرفة والوجود، ط1، إربد-الأردن، عالم الكتب الحديث 2016، ص327.

[4]- ابن العربي، الميزان في حقيقة الإنسان، ص35

وتشويه، وعالم دار الجنة، عالم سعادة وكشف. وعالم دار النار، عالم شقاوة وحجاب. وعالم البرزخ، عالم مثال لا عالم حقيقة. وما ثَمَّ محلا آخر أصلا إلا دار الدنيا"[1]. فالإنسان الحق هو خليفته في عالمه، والنائب عنه فيهم.

رابعا: أسرار الثمانيات في الإنسان

يقول ابن العربي في خطبة كتابه "الميزان في حقيقة الإنسان": " (...) وفي أحسن تقويم خلقك فكمّلك، وعلى الصورة الإلهية فطرك، وعلى ثمانيتها حملك"[2].

يذهب الشيخ الباحث الأكبري عبد الباقي مفتاح إلى أن ابن العربي يشير بكلمة الثمانية، إلى أعضاء التكليف الثمانية، وإلى قوى الإنسان الثمانية، والصفات الثمانية، والأنوار الثمانية، والجنات الثمانية، والعرش الذي تحمله الملائكة الثمانية. ويبيّن الشيخ محيي الدين بن العربي في الفتوحات المكية أن أعضاء التكليف الثمانية من الإنسان هي: القلب والسمع والبصر واللسان واليد والبطن والفرج والرجل. فهي على عدد الجنات الثمانية، فيدخل العبد في عبادته من أي أبواب الجنة شاء.

ثم إنه بيّن أن لكل عضو عمل يخصّه، ولكل عمل نتيجة تخصّه من الكون تسمى "كرامة" ينتجها حال ذلك العمل تناسب العضو المكلف وحال العمل الذي يختص بذلك العضو.

ثم يطابق ويماثل بين هذه الأعضاء والأنوار التي يعطيها الذكر للعابد الذاكر وهي المقسمة على الأعضاء التي يهتدي بها. وهي: نور الهلال والقمر والبدر والكوكب والنار والشمس والسراج والبرق. ثم يطابق بينها وبين الأسماء الإلهية من منطلق أن كل نور من هذه الأنوار يكشف من الصفات التي تحصر الأسماء الإلهية والذات، كالحياة والعلم والإرادة والقدرة والكلام والسمع والبصر والذات المنعوتة بهذه الصفات. فلكل صفة نور من هذه الأنوار[3].

وأيضا يعرف الموازنات بين الأشياء الموزونة والمناسبات، فلا يخفى عليه شيء، فهو نور كله، وهو ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "واجعلني نورا".

وأرباب القوى هي عموما عند ابن العربي ثمانية: القوى الحسية الخمس وهي: العين والأذن واللسان والأنف واللمس والقوة العاقلة، والمفكرة، والخيالية. وما عداها من القوى هي كالسدنة لهذه القوى.

ثم إن الشيخ عبد الباقي مفتاح في شرحه لقول الشيخ الأكبر يذهب أيضا إلى أن الشيخ الأكبر يقيم تناسبا بين هذه الثمانية والأصناف الثمانية التي تجب فيها الزكاة. فقد اتفق العلماء على أن الزكاة تجب في ثمانية أشياء محصورة في المولَّدات من: معدن ونبات وحيوان. فالمعدن: الذهب والفضة؛ والنبات: الحنطة والشعير والتمر. والحيوان: الإبل والبقر والغنم. ويقول بأن هذا هو المتفق عليه وهو الصحيح في رأيه.

وهذا التناسب بين الأعضاء الثمانية وهذه الأصناف الثمانية التي تجب فيها الزكاة من ناحية الاعتبار فيها؛ أن "الزكاة تجب من الإنسان في ثمانية أعضاء: البصر والسمع واللسان واليد والبطن والفرج والرجل والقلب. ففي كل

---

[1]- ابن العربي، الميزان في حقيقة الإنسان، ص35-36.

[2]- المصدر نفسه، ص29. ابن عربي، الفتوحات المكية، الباب ست وعشرون وخمسمائة.

[3]- المصدر نفسه، ص52.

عضو، وعلى كل عضو من هذه الأعضاء صدقة واجبة يطلب الله بها العبد في الدار الآخرة. فتعيّن على المؤمن أداء حق الله تعالى في كل عضو: فزكاة البصر ما يجب لله تعالى فيه من الحق، كالغض عن المحرمات، والنظر فيما يؤدي النظر إليه من القربة عند الله، كالنظر في المصحف، وفي وجه العالِم، وفي وجه من يسر بنظرك إليه من أهل وولد وأمثالهم، وكالنظر إلى الكعبة إذا كنت لها مجاورا. وعلى هذا النحو تنظر في جميع الأعضاء المكلفة في الإنسان من تصرفها فيما ينبغي، كفها عما لا ينبغي"[1].

خامسا: الإنسان الموحد الذاكر هو العمد الواصل بين السماء والأرض

وجاء في نفس خطبة الكتاب قول الشيخ الأكبر ابن العربي: "فما لك لا تشكر الله أيها الإنسان على ما خوّلك؟ ومالك لا تحمده وقد نزّلك أمرا بين سمائه وأرضه وفضلك"[2].

يؤكد الشيخ عبد الباقي مفتاح أن العربي يؤكد في على أن الإنسان الموحِّد الذاكر هو العمد الواصل بين السماء والأرض، والواسطة بين المراتب العلوية والمراتب السفلية.

يقول ابن العربي أن الله تعالى أمسك صورة السماء لأجل الإنسان الموّحد الذي لا يمكن أن ينفي فذكره الله الله لأنه ليس في خاطره إلا الله تعالى؛ فما عنده أمر آخر يدّعي عنده ألوهية فينفيه بـ"لا إله إلا الله". فليس إلا الله الواحد الأحد. ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على وجه الأرض من يقول الله الله" وهو الذكر الأكبر الذي قال فيه تعالى:﴿ **وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ** ﴾[العنكبوت:45]. فما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يقول لا إله إلا الله. فهذا الاسم هو هِجّير آخر قطب يقبض في آخر الزمان، فإمن هذا وأمثاله كان العَمَد، لأن الله ما أمسكها إلا من أجله أن تقع على الأرض، ولذلك قال فيها إنها واهية، أي واقعة ساقطة[3].

ويذهب ابن العربي إلى أن الله تعالى وا وصف شيئا بالكثرة إلا الذكر وما أمر بالكثرة من شيء إلا الذكر. قال تعالى:﴿ **وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ**﴾[الأحزاب:35]. وقال:﴿**وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا**﴾[الأحزاب:41]. كما أنه ما أتى الذكر قط إلا باسم الله خاصة معرَّى عن التقييد فقال: ﴿ **اذْكُرُوا اللَّهَ** ﴾ وما قال بكذا. وقال:﴿**وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ** ﴾[العنكبوت: 45) ولم يقل بكذا. وقال:﴿ **وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ** ﴾[الحج:36] ولم يقل بكذا. وقال صلى الله عليه وسلم :(لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على وجه الأرض من يقول الله الله)، فما قيّده بأمر زائد على هذا اللفظ. لأنه ذكر الخاصة عباده الذين يحفظ الله بهم عالم الدنيا، وكل دار يكونون فيها، فإذا لم يبق في الدنيا منهم أحد لم يبق للدنيا سبب حافظ يحفظها من أجله، فتزول وتخرب"[4]. والذكر الحافظ هنا المراد به ذكر باستحضار، ولا يعتبر اللفظ دون استحضار.

---

[1]- ابن العربي، الميزان في حقيقة الإنسان، ص53. ابن عربي، الفتوحات المكية، الباب سبعون المتعلق بأسرار الزكاة.

[2]- المصدر نفسه، ص29.

[3]- المصدر نفسه، ص46. ابن عربي، الفتوحات المكية، الفصل الرابع من الباب واحد وسبعون وثلاثمائة المتعلق بمنزل سورة الرعد.

[4]- المصدر نفسه، ص47. ابن عربي، الفتوحات المكية، الباب اثنين وأربعين ومائة.

فلولا أن قول الإنسان "الله الله" له حفظ العالم الذي يكون فيه هذا الذكر، لم يقرن بزواله زوال الكون الذي زال منه وهو الدنيا. وما في الأذكار أعظم فائدة منه. ولم يذكر صورة ذكر آخر مع كثرة الأذكار بالأسماء الإلهية، فاتخذه أهل الله ذكرا وحده فأنتج لهم في قلوبهم أمرا عظيما لم ينتجه غيره من الأذكار[1].

خاتمـــة:

وهكذا نخلص في نهاية هذه المداخلة إلى القول أنّ ميزان حقيقة الإنسان في تصوف ابن العربي يظهر جليا في القول أنّ الإنسان ما هو إلا عين جمعه بين الصورتين: صورة العالم، وصورة الحق وهما يدا الحق. فالإنسان عند الشيخ الأكبر مخلوق على الصورة أو حقائق الأسماء الإلهية، والتحقق بالأسماء الإلهية هو وحده الذي يصح به أن يكون الإنسان إنسانا.

هذا وقد خرجت هذه الورقة البحثية ببعض النتائج هي كالآتي:

1-التحقق المعرفي والعملي بصورة الحق في تصوف ابن العربي هو الذي يميّز بين الإنسان الحيوان والإنسان الكامل، وذلك لأن كليهما يتشابهان من حيث تماميتهما الوجودية ولكنهما يختلفان من حيث كماليتهما المعرفية العملية.

2-معنى "الإنسانية" في تصوف ابن العربي يعني الخلافة عن الله تعالى، وهنا تظهر قيمة النظر إلى مصطلح الإنسانية كـ: "صفة فعل" أو وعي معرفي وتحقق فعلي عملي سلوكي، لأنها ستكون حينئذٍ "أنس بالرتبة الكمالية"، أو ارتقاء إلى الدرجة التي توصل الإنسان للخلافة في الأرض.

3-إن الإنسان في تصوف ابن العربي هو محور كل عمل وهو مدار أي تغيير، وفعل كوني يراد إنجازه. وهو يؤكد أننا إذا أردنا أن نصنع شيئا في العالم، فلنصنع التغيير أولا في الإنسان؛ فالإنسان الكامل المشروع المطلوب هو نقطة البداية وهو أيضا نقطة النهاية، كما جاء في الأثر النبوي: "من عرف نفسه عرف ربه".

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

[1]- المصدر السابق، ص47. ابن عربي، الفتوحات المكية، الباب: 361.

المراجع:

-البخاري، الجامع الصحيح، بيروت، دار الفكر(د.ت).

- بن البشير، محمد المنصف، فلسفة ابن عربي في المعرفة والوجود، ط1، إربد-الأردن، عالم الكتب الحديث 2016.

-جبل، محمد حسن، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، ط1، القاهرة، مكتبة الآداب 2010.

-الحكيم، سعاد، المعجم الصوفي، ط1، بيروت، دار دندرة للطباعة والنشر 1981.

-فرحات، عبد الوهاب، نظرية الإنسان عند محيي الدين بن عربي، أطروحة دكتوراه، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، قسم العقيدة ومقارنة الأديان، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2003-2004.

- العجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، تحقيق: أحمد القلاش، ط4، بيروت، مؤسسة الرسالة 1985.

- ابن عربي، الفتوحات المكية، بيروت، دار صادر (د.ت).

- ابن عربي، كتاب التراجم، تحقيق موفق فوزي الجبر، ط1، دمشق، دار الحكمة 2000.

- ابن العربي، الميزان في حقيقة الإنسان، تحقيق وتعليقات: عبد الباقي مفتاح، ط1، إربد-الأردن، عالم الكتاب الحديث للنشر 2022.

-الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ط2، المطبعة الحسينية المصرية 1344هـ، ج2، ص198.

- مسلم، الصحيح، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الرياض، الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والإرشاد 1400هـ.